ظَاهِرَةُ الشَّوْقِ والحَنِيْنِ في شِعْرِ الرُّصَافِيّ البَلَنسِيّ
دِرَاسَةٌ تَحْلِيْلِيَّةٌ فَنِّيَّةٌ

دكتور/ عامر محمود ربيع
الأستاذ المشارك بقسم اللّغة العربيّة
كلّيّة الآداب – جامعة جرش– الأردنّ

ملخّص البحث:

يتناول هذا البحث بالدراسة ظَاهِرَةُ الشَّوْقِ والحَنِيْنِ في شِعْرِ الرُّصَافِيّ البَلَنسِي– دراسة فنية وتهتم الدراسة بظاهرة الشّوق والحنين في شِعر الرّصافيّ البلنسيّ حيث إنها من الظّواهر المهمّة الّتي وقف عليها الباحث في شِعر البلنسيّ وشكّلت حضورًا مهمًّا وظاهرًا للمتلقّي؛ لما تكشف عنه من غايات نفسية كامنة عند الشّاعر، واهتمّت الدّراسة كذلك بالكشف عن الخصائص الموضوعيّة والفنّيّة المتعلّقة بالنّصوص الشِّعريّة.

الكلمات المفتاحية: الشّوق – الحنين – البلنسيّ – الصّورة الفنّيّة – التّكرار – التّناصّ .

Research Summary:

This research deals with the phenomenon of longing and nostalgia in the poetry of Al-Rusafi Al-Balansi - an artistic study. The study also focused on revealing the objective and technical characteristics related to poetic texts.

Keywords: longing - nostalgia - Balansy - artistic image -Repetition – intertextuality.

المقدّمة:

موضوع الشوق والحنين إلى الدّيار، والأهل والأحبّة قديم قِدم الشِّعر العربيّ، منذ امرئ القيس، ومرورًا بشِعر صدر الإسلام، والعصر الأمويّ، والعبّاسيّ، والأندلسيّ...، وانتهاءً بهذا العصر الّذي نعيش فيه. وقد تجسّدت في هذا اللّون الشِّعريّ اللّوعة والألم، والأسى والحزن، وغالبًا ما يرتبط بغربة الإنسان عن وطنه، وأهله وأصدقائه.

- **أهميّة الدّراسة:**

تأتي أهميّة هذه الدّراسة من معالجتها لظاهرة الشّوق والحنين في شِعر الرّصافيّ البلنسيّ، وهذه الظّاهرة المهمّة وجدها الباحث تشكّل حضورًا لافتًا في شِعره.

- **أهداف الدّراسة:**

هدفت هذه الدّراسة إلى ما يلي:

تجلية ظاهرة الشّوق والحنين في شِعر الرّصافيّ البلنسيّ الّتي شكّلت ظاهرة فنّيّة لافتة للمتلقّي، ثمّ بيان الغاية النّفسيّة الكامنة وراء هذه الظّاهرة، وكذلك الكشف عن الخصائص الموضوعيّة والفنّيّة المتعلّقة بالنّصوص الشِّعريّة مدار الدّراسة.

- **منهج الدّراسة:**

اتّكأت الدّراسة على المنهج الوصفيّ التّحليليّ، الّذي يرصد النّصوص الدّالّة، ويقف على بنيتها الموضوعيّة والفنّيّة ويحلّلها.

- **أسباب اختيار الدّراسة:**

رفد الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة الّتي أُجريت حول شِعر الرّصافيّ البلنسيّ بالمزيد من الأبحاث الّتي تكشف عن جوانب الإبداع في شِعره، وكذلك حضّ الباحثين على إرجاع النّظر في شِعره؛ لإبراز الظّواهر الفنّيّة الأخرى الكامنة فيه، إضافة إلى الوقوف على الظّاهرة محلّ الدّراسة ومعالجتها من النّاحية الفنّيّة والموضوعيّة .

- **الدّراسات السّابقة، مرتبة حسب الأقدميّة، وهي:**

- دراسة الفراجي، خالد شكر محمود صالح، بعنوان"شِعر الرّصافيّ البلنسيّ– دراسة موضوعيّة– رسالة ماجستير غير منشورة، كلّية التّربيّة– ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠٠٣. وممّا جاء فيها حديثه عن الحنين والشّوق إلى مدينة بلنسية الّتي نشأ وترعرع فيها الشّاعر، وكذلك إلى أحبابه وأصدقائه.
- دراسة الزّهرانيّ، يحيى بن أحمد، المعنونة ب"قراءة في شِعر الطّبيعة عند الرّصافيّ البلنسيّ، حوليّة كلّيّة اللّغة العربيّة بالزّقازيق، مجلّد(٣)، العدد(١)، ٢٠١٢. عرض فيها لوصف الطّبيعة الصّامتة عند الشّاعر، من: وصف الأنهار، والرّياض،

والنّوار...، وكذلك وصفه الطّبيعة المتحرّكة، مثل: الخيول، والطّيور...، وبيّن انعكاس هذه المظاهر الطّبيعيّة على التّجارب الفنّيّة والذّاتيّة لدى الشّاعر.

- دراسة محمّد، سرحان حسن سرحان، بعنوان"مقطّعات الرّصافيّ البلنسيّ الشّعريّة من الوجهة الفنّيّة والبلاغيّة، حوليّة كلّيّة اللّغة العربيّة بالزّقازيق، مجلّد(٣٢)، العدد(١)، ٢٠١٢. تناول فيها أبرز المميّزات الفنّيّة لهذه المقطّعات، مثل: الصّور البلاغيّة المتنوّعة، وحسن التّعليل، والغرابة والابتكار، والتّكرار.
- دراسة يوسف، جمعة حسين، بعنوان"صورة الممدوح في شِعر الرّصافيّ البلنسيّ- دراسة تحليليّة- مجلّة الفراهيديّ، العدد(١٢)، ٢٠١٢. تناول فيها دوافع المدح، سواء أكانت تكسبًا أم حبًّا للممدوح، ومفهوم الصّورة الفنّيّة، وكذلك أهمّ الشّخصيّات الّتي خصّها الشّاعر بالمدح، منها: الأمير عبد المؤمن بن عليّ الموحّديّ(ت٥٢٤ه). وأبو عبد الله محمّد بن عبد الملك بن سعيد(ت٥٨٩ه). والوزير أحمد بن عبد الرّحمن بن أحمد الوقشيّ(ت٥٧٤ه).
- دراسة بركات، رزق عمري، الموسومة ب"الوصف بين الرّصافيّ البلنسيّ والسّريّ الرّفّاء- دراسة مقارنة- مجلّة الدّراسات التّربويّة والإنسانيّة، جامعة دمنهور، مجلّد(٥)، العدد(٤)، ٢٠١٣. وقد نهضت هذه الدّراسة على المقارنة بين هذين الشّاعرين في موضوع واحد؛ هو الوصف، وممّا تناوله الباحث المقارنة بين قصيدة الرّصافيّ البلنسيّ في الشّوق والحنين إلى بلده بلنسية، وبين قصيدةالسّريّ الرّفّاء في الشّوق والحنين إلى بلده الموصل.
- دراسة جاسم، أحمد دعيبل، المعنونة ب"توظيف الأمثال في شِعر الرّصافيّ البلنسيّ، خلص فيها إلى أنّ الشّاعر أعاد صياغة أمثاله الّتي وظّفها لتناسب نصوصه الشّعريّة، ومستوحيًا منها مغزى المثل، ولعلّ ميل الشّاعر إلى المثل الإشاريّ راجع إلى حريّة الصّياغة في التّعامل مع الأمثال، وإعادة صياغتها بما يتناسب ونصّه الشّعريّ، وقد أفاد الرّصافيّ من المثل في إيجاز العديد من العبارات الّذي يقتضب قصّة كاملة.

التّمهيد:

الحنين لدى العرب بخاصّة من علامات الوفاء والإخلاص، وكرم الأخلاق، وتمام العقل، وقد أينعت هذه العاطفة الصّادقة شِعرًا غزيرًا رائعًا، يفيض بالألم والمعاناة، واللّوعة الدّائمة، والدّموع المحرقة.

والحنين– بصورة عامّة– إحساس ذاتيّ مفعم بالعاطفة الصّادقة، وفطرة فُطر الإنسان عليها؛ تشتعل وتتوهّج لديه، ولاسيّما إذا نأى عن وطنه، واضطرّته بعض الظّروف إلى مغادرته؛ قسرًا أو طواعيةً. ويتجسّد في هذه اللّفظة(الحنين) معاني: العطف والرّحمة والشّفقة، كما في قوله تعالى:﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾[مريم:١٣] هذا من جهة. ويتمظهر فيها: "الشّديد من البكاء والطّرب؛ كان ذلك عن حُزن أو فرح، والحنين: هو الشّوق وتوقان النَّفْس. وحنّت الإبل: نزعت إلى أوطانها أو أولادها. والنّاقة تحنّ في أثر ولدها حنيناً: تطرب مع صوت...، يُقال: حنّ قلبي إليه، فهذا نزع واشتياق من غير صوت."[١] و"الحاء والنّون أصل واحد، وهو الإشفاق والرّقة، وقد يكون ذلك مع صوت بتوجّع...، ويكون ذلك من غير صوت أيضًا."[٢] من جهة أخرى.

وعند الحكماء دليل على رقّة القلب، وكرم المحتد والأصل، فقالوا: " الحنين من رقّة القلب، ورقّة القلب من الرّعاية، والرّعاية من الرّحمة، والرّحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرِّشدة، وطهارة الرِّشدة من كرم المحتد."[٣] ومن علامات العاقل": برّه لإخوانه، وحنينه لأوطانه..."[٤]، وعند العجم من علامات الرِّشد، "قالت العجم: من علامة الرِّشد؛ أن تكون النّفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة"[٥] وتحمل الأقوال السّابقة دلالة حبّ الوطن، والحنين إليه، فضلًا عن دلالتها على كرم أصل المرء، وطيب منبته، وكرم محتده، وكمال رِشده وعقله، وحسن وفائه.

وأوضح دليل على حبّ الوطن، والشّوق والحنين إليه، قول الرّسول–صلّى الله عليه وسلّم– حينما خرج مهاجرًا من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، فما كاد عليه السّلام يبتعد عن مكّة، حتّى ولّى وجهه الكريم إليها، قائلًا:" واللَّه إنَّك لخيرُ أرضِ اللَّه، وأحبُّ أرضِ اللَّهِ إلى اللَّه، ولولا أنِّي أُخرِجتُ منكِ ما خرجتُ."[٦] وقد جعل الله– عزّ وجلّ– خروج بني إسرائيل من ديارهم كفء قتلهم أنفسهم، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ

(١) ابن منظور، لسان العرب (١٥/ ١٠٢٩).
(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة (٢/ ٢٤).
(٣) الجاحظ، رسائله (٢/ ٣٨٦).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٣٨٩).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٣٨٥).
(٦) ينظر: ابن حبّان، صحيح ابن حبّان(المسند الصّحيح) (١/ ٢٦٧– ٢٦٨).

أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النّساء:٦٦].

وفي الاصطلاح: "حزن وذبول يغشيان عددًا من النّاس في حال ابتعادهم عن الوطن، وينفجران في نفس الفنّان أو الشّاعر إنتاجًا وجدانيًّا رهيفًا...، تَوْقٌ إلى أمر أو مَثَل أعلى غامض الملاح يَبرز في النَّفْس الحسّاسة، فيبعث فيها ألمًا؛ لعجزها عن تحقيق أمنيّتها، وينجم عن هذا الشّعور اعتقاد بأنّ بلوغ الغاية لا يتأتّى إلّا في مجتمع فاضل، أو في عالم آخر، وبرز هذا النّوع من التّوق الماورائيّ في كثير من آثار الفنّانين، وبخاصّة لدى الرّومانسيّين."[١] و"رحلة في الزّمان، وعودة إلى الوراء؛ لمعايشة الماضي شِعرًا، أو استرجاعه واستحضاره على مستوى المكان والأهل والوقائع"[٢] والحنان: رقّة القلب، ولا يطلق إلّا على العواطف الإنسانيّة، والحنان عاطفة عميقة دائمة، في حين أنّ الحساسية انفعال موقّت يزول بزوال أسبابه، وإن كان قويًّا.[٣]

والحنين في الأدب: "مصطلح أدبيّ طغى على الشّعراء الّذين ابتعدوا عن وطنهم، فاعتراهم الشّوق إليه، فكانوا يتغنّون به وبجماله، وهم يعبّرون عنه، ولا يكون شِعر الحنين إلى الأوطان إذا كان المرء في وطنه، إلّا إذا كان في غربة نفسيّة."[٤] ويكون أيضًا: للأهل، والأحبة، والأصدقاء، والأقارب، وللذّكريات العزيزة، وكلّ ما يربط المرء بصلة قويّة، ووشائج متينة، فالحنين ليس للوطن فحسب، بل لكلّ أثير إلى النّفْس وغالٍ عليها، ويحمل صدق التّجربة، والمعاناة الصّادقة، وفيض الوجدان، والعاطفة الجيّاشة، والنّغمة الحزينة الشّجيّة.

وقد جاء على ألسنة الشّعراء الكثير من الأبيات الّتي تصوّر حنينهم لأوطانهم، كقول أبي تمّام(ت٢٣١ه) من [الكامل]:[٥]

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الفَتَى وَحَنِينُهُ أَبَداً لِأَوّلِ مَنْزِلِ

فمهما ألف الإنسان من أماكن جديدة، لسبب أو لآخر، فشوقه وحنينه دائمًا إلى وطنه الّذي تربّى وترعرع فيه.

(١) عبد النّور، جبّور، المعجم الأدبيّ، (ص ١٠٠).
(٢) طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشّعر الأندلسيّ، (ص ١٠).
(٣) ينظر: صليبا، جميل، المعجم الفلسفيّ (١/ ٥٠٠).
(٤) النّونجيّ، محمّد، المعجم المفصّل في الأدب (١/ ٣٨٥).
(٥) أبو تمّام، ديوانه (٤/ ٢٥٣).

وقول ابن الرّوميّ(ت٢٨٣ه) من [الطّويل]:[١]

وَلِـــي وَطَـــنٌ آليْـــتُ ألّـــا أَبِيْعَـــهُ وَلَـــا أَرَى غَيْـــرِي لَـــهُ الـــدَّهرَ مَالِكَـــا

وحَبَّـــبَ أَوْطَـــانَ الرِّجَـــالِ إلَـــيهِمُ مَـــآرِبُ قَـــضَاهَا الـــشَّبَابُ هُنَالِكَـــا

إِذا ذَكَـــرُوا أَوْطَـــانَهُم ذكَّـــرتْهُمُ عُهُـــودُ الـــصِّبا فِيهَـــا فَحنُّـــو لِـــذَلِكَا

فهذه الأبيات تحمل بين طيّاتها الحنين إلى الوطن الأمّ؛ حيث مآرب الشّباب الّتـــي قضاها المرء هناك، وعهود الصِّبا الّتي تذكي عاطفة الحنين.

وشِعر الحنين إلى الأوطان قديم قِدم الشِّعر العربيّ، يقول امرؤ القيس في حديثـــه عن رجل سبقه في ذكر الدّيار والحنين إليها من [الكامل]:[٢]

عُوجَـــا عَلَـــى الطَّلَـــلِ المُحِيـــلِ لِأَنَنَـــا نَبْكِي الدِّيارَ كَمَـــا بَكَـــى ابْـــنُ حِـــذَامِ[٣]

وليست المقدّمات الطّلليّة إلّا تعبيرًا عن الحنين إلى ديار المحبوبة، ومن ثمّ الاشياق لها، وهي في دار الغربة.

وبقيت هذه الظّاهرة الأدبيّة ملازمة للشِّعر العربيّ إلى يومنا هذا؛ ولذلك عدّه النّقاد القدامى غرضًا من أغراض الشِّعر، يقول المرزوقيّ في ذلك: "والشّعراء إنّما أغراضـــهم الّتي يسدّدون نحوها، وغاياتهم الّتي ينزعون إليها: وصف الدّار والآثار، والحنـــين إلـــى المعاهد والأوطان، والتّشبيب بالنّساء، والتّلطيف في الاجتـــداء، والتّفـــنّن فـــي المـــديح، والمبالغة في التّشبيه والأوصاف."[٤]

(١) ابن الرّومي، ديوانه، (ص ١٨٢٥-١٨٢٦).

(٢) امرؤ القيس، ديوانه، (ص ١٥).

(٣) عوجا: اعطفا رواحلكما. المحيل: الّذي أتى عليه الحول، فتغيّر. ابن حذام: رجل ذكر الدّيار قبل امرئ القيس وبكى عليها.

(٤) المرزوقيّ، شرح ديوان الحماسة (١/ ٢٠).

المبحث الأوّل: الشّوق والحنين في شعر الرُّصافيّ البلنسيّ إلى بلنسية ومعاهدها

لقد حظيت مدينة رصافة بلنسية بنصيب وافر من الجمال الطّبيعيّ؛ حيث "خصّها الله بأحسن مكان، وحفّها بالأنهار والجنان، فلا ترى إلّا مياهًا تتفرّع، ولا تسمع إلّا أطيارًا تسجع، ولا تستنشق إلّا أزهارًا تنفح...، وما أجلت لحظًا بها في شيء إلّا قلت هذا أملح، ولها البحيرة الّتي تزيد في ضوء بلنسية صحو الشّمس عليها، ويقال: إنّ ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس، وجوّها صقيل لا ترى فيها ما يكدّر خاطرًا ولا بصرًا؛ لأنّ الجنّات والأنهار أحدقت بها، فلم يثر بأرجائها تراب من سير الأرجل، وهبوب الرّياح، فيكدّر جوّها، وهواؤها حسن؛ لتمكّنها من الإقليم الرّابع، وأخذها من كلّ حُسن بنصيب، ولها البحر على القُرب، والبرّ المتّسع، وحيث خرجتَ من جهاتها لا تلقى إلّا منازه ومسارح، ومن أبدعها وأشهرها الرّصافة."(١)

في هذه البيئة السّاحرة الخلّابة الفاتنة ولد شاعرنا، فاكتسب منها رقّة المشاعر، ورهافة الحسّ، وأسباب الإبداع، ومن ثمّ احتلّت في نفسه مكانة مميّزة، ومنزلة أثيرة، فلا غرو، إذن، عندما غادرها مع والده قسرًا إلى مالقة أنّ يحنّ إليها، ويتشوّق لرؤيتها، يقول ابن الأبّار(ت٦٥٨ه):"خرج صغيرًا من وطنه، فكان يكثر الحنين إليه، ويُقصر أكثر منظومه عليه."(٢) فظلّ يذكر معاهد لهوه، وعهد طفولته، ومراتع صباه، في: الرّصافة نفسها، وجسر معان، والبحيرة والنّهر، وسائر المناظر الطّبيعيّة.(٣)

يقول في الحنين والتّشوق إلى رُصافة بلنسية من[المتقارب]:(٤)

وَلَـــا كَالرُّصَـــافَةِ مِـــنْ مَنْـــزِلِ سَـــقَتْهُ الـــسَحائِبُ صَـــوْبَ الـــوَلي(٥)

أَحِـــنُّ إِلَيْهَـــا وَمَـــنْ لِـــي بِهَـــا وَأَيـــنَ الـــسَرِيُّ مِـــنَ المَوصِـــلِ(٦)

فليس أحبّ إليه من بلده الرّصافة، ومن شدّة حبّه للرّصافة يدعو لها بالسّقيا؛ لتبقى غنيّة بأهلها، ويستذكر– في هذه الحال– السّريّ الرّفّاء الّذي عاش أكثر عمره بعيدًا عن بلده الموصل، فظلّ يحنّ ويشتاق إليه، فهما يشتركان في الحنين والشّوق إلى مرتع الصّبا، ومعاهد الأنس، فضلًا عن اشتراكهما في مهنة رفو الثّياب.

---

(١) ابن سعيد المغربيّ، المُغرب في حُلى المَغرب، (ص ٢٩٧–٢٩٨).

(٢) ابن الأبّار، التّكملة لكتاب الصّلة (٢/ ٤٦).

(٣) ينظر :عبّاس، إحسان، مقدّمة ديوان الرّصافيّ البلنسيّ، (ص ١١).

(٤) الرّصافيّ البلنسيّ، ديوانه (ص ١١٨).

(٥) الوليّ: الدّفعة الثّانية من المطر، وقد تكون بعد الوسميّ.

(٦) السّريّ الرّفّاء: هو أبو الحسن السّريّ بن أحمد بن السّريّ الكنديّ الرّفّاء الموصليّ الشّاعر المشهور، توفي سنة(٣٦٠ه). ينظر: ابن خلّكان، وفيات الأعيان (٢/ ٣٥٦–٣٦٢).

وقال يتشوّق أيضًا إلى بلنسية، ويحنّ إليها، وكان قد خرج منها صغيرًا من[الطّويل]:(١)

خَلِيْلَيَّ مَا لِلبِيْدِ قَدْ عَبَقَتْ نَشْرَ وَمَا لِرُؤوسِ الرَكْبِ قَدْ رُنِّحَتْ سُكْرَا

فقد افتتح قصيدته بأسلوب النّداء" خَلِيْلَيَّ" على عادة الشّعراء الجاهليّين؛ بقصد التّنبيه ولفت الانتباه إلى ما يريد التّحدث عنه، كما عزّز هذا التّنبيه ولفت الأنظار إلى ما يتغيّاه بتكرار أسلوب الاستفهام في قوله:" مَا لِلبِيْدِ قَدْ عَبَقَتْ نَشْرًا؟ وَمَا لِرُؤوسِ الرَكْبِ قَدْ رُنِّحَتْ سُكْرَا؟" وهذا البيت الّذي افتتح به قصيدته، يحمل في طيّاته الحنين والشّوق إلى بلنسية بعامّة والرّصافة مسقط رأسه بخاصّة الّتي اضطرّته الظّروف إلى مغادرتها. ثمّ يُشير إلى إحدى المثيرات المعنويّة(الذّكرى) الّتي أثارت في جوانحه الاشتياق إلى موطن الصِّبا؛ حيث يقول في القصيدة نفسها:

هَلِ المِسْكُ مَفْتُوقًا بِمَدْرَجَةِ الصَبَا أَمِ القَوْمُ أَجْرَوا مِنْ بَلَنْسِيَةٍ ذِكْرَا

ويكرّر أسلوب النّداء" خَلِيْلَيَّ" إمعانًا في الطّلب من صديقيه المتخيّلين في رحلته المتخيّلة بأن يعوجا به على بلنسية، أو يحدّثاه عنها على الأقل، فالحديث عنها أو رؤيتها يقع في فؤاده كوقع الماء الزّلال البارد في الكبد الحرّى الّتي أضناها العطش الشّديد. ويطلب منهما كذلك الوقوف عليها، والدّعاء لها بالسّقيا؛ لتظلّ غنيّة بأهلها. يقول:

خَلِيْلَيَّ عُوْجَا بِي عَلَيْهَا فَإِنَّه حَدِيْثٌ كَبَرْدِ المَاءِ فِي الكَبِدِ الحَرّى

قِفَا غَيْرَ مَأْمُورَيْنِ وَلْتَصْدِيَا بِهَا عَلَى ثِقَةٍ لِلْغَيْثِ فَاسْتَسقِيَا القَطْرَا

وينتقل بنا للحديث عن جسر معان خاصّة، والرّصافة عامّة– بعد أن يطلب من خليليه بأن يدعوا لهما بالسّقيا والخير والبركة. يقول:

بِجِسْرِ مَعَانٍ وَالرَصَافَةِ إِنَّهُ عَلَى القَطْرِ أَنْ يَسْقِي الرَصَافَةَ وَالجِسْرَا(٢)

بِلَادِي الَّتِي رِيْشَتْ قُوَيْدِيمَتَي بِهَا فُرَيخًا وَآوَتْنِي قَرَارَتُهَا وَكْرَا(٣)

مَبَادِئ لِيْنِ العَيْشِ فِي رَيِّقِ الصِّبَا أَبَى اللَهُ أَنْ أَنْسَى لَهَا أَبَدًا ذِكْرَا(٤)

(١) ينظر القصيدة في: ديوان الرّصافيّ البلنسيّ، (ص ٦٧–٧٣).

(٢) جسر معان: لعلّه الجسر القائم على نهرها. ينظر: ديوان الرّصافيّ البلنسيّ، (ص ٦٨).

(٣) قويديمتي: تصغير قادمتي. والقادمة إحدى القوادم، وهي أربع ريشات في مقدّم الجناح.

(٤) ريّق الصّبا: أوّله وأفضله.

لَبِسْنَا بِهَا ثَوْبَ الشَبَابِ لِبَاسَهَا وَلكِنْ عَرِيْنَا مِنْ حُلَاهُ وَلَمْ تَعْرَى

أَمَنْزِلَنَا عَصْرَ الشَبِيبَةِ مَا الَّذِي طَوَى دُونَنَا تِلْكَ الشَبِيبَةَ وَالعَصْرَا

مَحَلٌّ أَغَرُّ العَهْدِ لَمْ نُبْدِ ذِكْرَهُ عَلَى كَبِدٍ إِلَّا امْتَرَى أَدْمُعًا حُمْرَا[1]

أَكُلُّ مَكَانٍ كَانَ فِي الأَرْضِ مَسْقَطًا لِرَأْسِ الفَتَى يَهْوَاهُ مَا عَاشَ مُضْطَرَّا

وَلَا مِثْلَ مَدْحُوٍّ مِنَ المِسْكِ تُرْبَةً تُمَلِّي الصَبَا فِيهَا حَقِيبَتَهَا عِطْرَا

نَبَاتٌ كَأَنَّ الخَدَّ يَحْمِلُ نَوْرَهُ تَخَالُ لُجَيْنًا فِي أَعَالِيهِ أَوْ تِبْرَا

وَمَاءٌ كَتَرْصِيعِ المَجَرَّةِ جَلَّتْ نَوَاحِيَهُ الأَزْهَارُ فَاشْتَبَكَتْ زُهْرَا

أَنِيْقٌ كَرَيْعَانِ الحَيَاةِ الَّتِي خَلَتْ طَلِيْقٌ كَرَيَّانِ الشَبَابِ الَّذِي مَرَّا

وَقَالُوا هَل الفِردَوْسُ مَا قَدْ عَلِمْتُهُ فَقُلْتُ وَمَا الفِردَوْسُ فِي الجَنَّةِ الأُخْرَى

تُصوّر– الأبيات المتقدّمة– حنين الشّاعر وشوقه إلى بلده الرّصافة؛ مسقط رأسه، ومرتع صباه، وتُظهر تعلّقه الشّديد به، فهناك نشأ وترعرع/ بلَادي الَّتي ريْشَتْ قُوَيْدِيمَتَي بهَا/ فُرَيخًا وَآوَتْني قَرَارَتُهَا وَكْرَا/ حيث كان في لين من العيش في أوّل الصّبا، فلا عجب أنّ يبقى وفيًّا لذكراها/ أَبَى اللَهُ أَنْ أَنْسَى لَهَا أَبَدًا ذكْرَا/ ولا غرو أيضًا أن يسيل الدّمع من عينيه مدرارًا كلّما جرت ذكراه على قلبه/لَمْ نُبْدِ ذكْرَهُ/ عَلَى كَبِدٍ إِلَّا امْتَرَى أَدْمُعًا حُمْرَا/ فبعدما كان في هدأة من الحياة، اضطرّته الظّروف إلى أن يتركها، ويغادرها عنوة/ وَلكِنْ عَرِيْنَا مِنْ حُلَاهُ وَلَمْ تَعْرَى/ ومن شدّة معاناته في بلاد الغربة، ينسى أسباب تركه وطنه/ مَا الَّذِي طَوَى دُونَنَا تِلْكَ الشَبِيبَةَ وَالعَصْرَا؟/ وأيًّا كان الأمر، فالمرء يهوى مسقط رأسه اضطرارًا وضرورة، دون حاجة إلى مقدّمات وإقناع.

وتتجلّى– في هذه الأبيات– أيضًا صورة الطّبيعة الخلّابة الفاتنة؛ حيث الألوان المتناسقة، والأزهار المتشابكة، والنّباتات المختلفة الزّهور الّتي يشبه بعضها الفضّة، وبعضها الآخر يشبه التّبر، وكذلك المياه الصّافية الّتي تحاكي المجرّة في صفائها، ورياح الصّبا الّتي تحمل نسماتها العطر الفوّاح، ومن ثمّ تبدو الرّصافة كأنّها الفردوس والجنّة الّتي أبدع الله حسنها، وصاغ جمالها على أجمل صورة.

(١) امترى الشّيئ: استخرجه.

ويحدّثنا أيضًا عن بلنسية، فهي زَبرْجَدَة، وماؤها لؤلؤ، كما تشبه العروس في حسنها وجمالها، ودرّة بيضاء تضيء من جميع الجهات، يزيد ضوؤها على ضوء سائر بلاد الأندلس، وتتمايل أزهارها تحت وقع الرّياح، كأنّها رجوم الشّهب الّتي تُقذف بها الشّياطين، فلا تستطيع الاقتراب منها، يقول:

بَلَنسِيَةٌ تِلْكَ الزَبَرْجَدَةُ الَّتِي تَسِيلُ عَلَيْهَا كُلُّ لُؤْلُؤَةٍ نَهْرَا

كَأَنَّ عَرُوسًا أَبْدَعَ اللَّهُ حُسْنَهَا فَصَيَّرَ مِنْ شَرْخِ الشَبَابِ لَهَا عُمْرَا

وَإِنْ كَانَ قَدْ مَدَّت يَدُ البَيْنِ بَينَنَا مِنَ الأَرْضِ مَا يَهْدَي المُجِدّ بِهِ شَهْرَا

تُؤَبَّدُ فِيهَا شَعشَعَانِيَّةُ الضُّحَى إِذَا ضَاحَكَ الشَمسُ البُحَيرَةَ وَالنَهْرَا[1]

تَرَاجَمُ أَنْفَاسُ الرِّيَاحِ بِزَهْرِهَا رُجُومًا فَلا شَيْطَانَ يَقرَبُهَا ذُعْرَا

هِيَ الدُرَّةُ البَيضَاءُ مِنْ حَيثُ جِئتَهَا أَضَاءَت وَمَنْ لِلدُرِّ أَنْ يَشبِهُ البَدْرَا

ويمعن في تصوير حنينه إلى بلده بلنسية الّتي خرج منها صغيرًا، ويتشوّق إلى أترابه وخلّانه وأصدقائه، الّذين أباد الدّهر لياليهم، وتركهم أثرًا بعد عين، ثمّ يشرع في ذكر صفاتهم، فهم: كرام أجواد، نجوم في العلم والمعرفة، سبّاقون إلى كلّ مكرمة وخير، صيتهم ذائع بين النّاس، يقول:

خَلِيلَيَّ إِنْ أَصدُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهَا هِيَ الوَطَنُ المَحْبُوبُ أَوْكَلتُهُ الصَدْرَا

وَلَمْ أَطْوِ عَنْهَا الخَطوَ هَجْرًا لَهَا إِذًا فَلا لَثَمَتْ نَعْلِي مَسَاكِنَهَا الخَضْرَا

وَلَكِنَّ إِجْلالًا لِتُربَتِهَا الَّتِي تَضُمُّ فَتَاهَا النَدْبَ أَو كَهْلَهَا الحُرَّا

أَكَارِمُ عَاثَ الدَهْرُ مَا شَاءَ فِيهِمُ فَبادَتْ لَيَالِيهِم فَهَلِ اِشْتَكَي الدَهرا

هُجُوعٌ بِبَطنِ الأَرْضِ قَدْ ضَرَبَ الرَدَى عَلَيهِم قُبَيبَاتٍ فُوَيقَ الثَرَى غُبْرَا

تَقَضَّوا فَمِنْ نَجمٍ هُنَالِكَ سَاقِطٍ أَبَى اللَهُ أَنْ يَرْعَى السِّمَاكَ أَوِ النَسْرَا

وَمَن سَابِقٍ هَذَا إِذَا شَاءَ غَايَةً شَأَى غَيرَ مَجْهُودٍ جِيَادَ العُلا حُضْرَا

(١) تُؤَبَّد: تُقيم أبدًا. الشَعْشعانيّة: أي الأنوار الشَعْشعانيّة. والبحيرة: إشارة إلى بحيرة في بلنسية، تزيد في ضياء بلنسية ضحوة الشّمس عليها.

أُنَــاسٌ إذَا لاقَيــتَ مَــنْ شــيتَ مــنهُمُ تَلَقَّــوكَ لا غَــثَّ الحَــدِيثِ وَلا غَمْــرَا
وَقَــدْ دَرَجَــتَ أَعْمَــارُهُم فَتَطَلَّعُــوا هِــلالَ ثَــلاثٍ لَــو سَــنَا رَقّ أَوْ بَــدْرَا
ثَلاثَــةُ أَمْجَــاد مــنَ النَفَــرِ الأُلَــى زَكَوا خَبَراً بَينَ الــوَرَى وَزَكَــوا خُبْــرَا

ويحتدم الحزن والأسى في قلبه، ويبلغ هذا الأمر أقصى غاياته، وهو يتذكر أصدقاءه الّذين طواهم الدّهر، ومزّقتهم أيدي المنون، وتعتريه اللّوعة والحسرة عندما تعتوره ذكرى من سكن القبور بعدما كان يسكن القصور، ويرى أنّ أولئك الثّلة من الخلّان جديرون بالاستذكار والتّذكر؛ نظرًا لما فيهم من صفات نادرة من: كرم وسخاء، وشجاعة وبأس، وأخلاق سامية رفيعة، يقول:

ثَكَلــتُهُم ثُكْــلاً دَهَــى العَــينَ وَالحَــشَا فَفَجَّــرَ ذَا مَــاءً وَسَــجَّرَ ذَا جَمْــرَا
كَفَــى حَزَنــاً أَنِّــي تَبَاعَــدتُ عَــنْهُم فَلَمْ أَلقَ مَــنْ أَسْــرَى مُخفِّــاً وَلا سَــرَّا
وَإِنِّي مَتَــى أَسْــأَلْ بِهِــم كُــلَّ رَاكِــبٍ لِيُظهِــرَ لِــي خَيْــراً تَــأَبَّطَ لِــي شَــرَّا
أباحِثُــهُ عَــنْ صَــالِحاتٍ عَهِــدتُها هُنَــاكَ فَيُنبِينِــي بِمَــا يَقــصِمُ الظَهْــرَا
مُحَيّــا خَلِيــلٍ غَــاضَ مَــاءُ حَياتِــهِ وَسَاكِنُ قَــصْرٍ صَــارَ مَــسكَنُهُ القَبْــرَا
وَأَزهَرَ كَالإِصْــباح قَــدْ كُنــتُ أَجتَلِــي سَــناهُ كَمَــا يَــستَقبلُ الأَرقُ الفَجْــرَا
فَتىً لَمْ يَكُنْ خلوَ الــصِّفات مــنَ النَــدَى وَلَمْ يَتَنــاسَ الجُــودَ أَعــدَمَ أَمْ أَثْــرَى
يُــصَرِّفُ مــا بَــينَ اليَراعَــةِ وَالقَنَــا أَنَاملَــــهُ لا بَــــلْ هَواطلَــــهُ الغَــــرَّا
طَويــلُ نِجــادِ الــسَيفِ لانَ كَأَنَّمَــا تَخَطّى بِهِ فِــي البَــردِ خَطِّيَّــةً سَــمْرَا
سَــقَتهُ عَلَــى مَــا فيــه مــنْ أَرْيَحيّــة خَلائِقُ هُنَّ الخَمْــرُ أَوْ تُــشبِهُ الخَمْــرَا
وَنَــشْرُ مُحَيَــا للمكَــارِمِ لَــوْ سَــرَتْ حُمَيّاهُ في وَجهِ الأَصِيلِ لَمَــا اصْــفَرَّا
هَل الــسَعْدُ إلّــا حَيــثُ خُــطَّ صَــعيدُهُ فَمَا بَلَّ في شَفْرَيْ ضَــرِيحٍ لَــهُ شَــفْرَا

ويختم الشّاعر قصيدته هذه؛ حيث وصف اللّيالي الّتي طواها على الحزن والأسى، واللّوعة والحسرة، دون أن يسعفه التّصبر والتّجلّد، فقد حُرم رؤية موطنه، والعيش فيه

ناعمًا بالسّكينة والهدوء والرّاحة، ولكنّه ظلّ وفيًّا له، يدعو له بالخير والمحبّة، وإن كان بعيدًا عنه، فهو قريب من قلبه، عزيز على البعد، يقول:

طَوَيتُ اللَيالي طَيَّهُنَّ وَإِنَّمَا طَوَينَ بِهِ عَنّي التَجَلُّدَ وَالصَبرَا

فَلا حُرِمَتْ سُقياهُ أَدمُعَ مُزنَةٍ تَرَى مَبسَمَ النُوّارِ أَصفَرَ مُغبَرًّا

وَما دَعوَتي لِلمُزنِ عُذراً لِدَعوَتي إِذَا مَا جَعَلتُ البُعْدَ عَنْ قُرْبِهِ عُذْرَا

مَعَاهِدُ قَدْ وَلَّتْ إِذَا مَا اعْتَبَرتَهَا وَجَدْتَ الَّذِي يَحْلُو مِنَ العَيْشِ قَدَ مَرَّا

ويقول متشوّقًا إلى وادي العسل من[البسيط]:[1]

كَمْ بَينَ شَطَّيكَ مِنْ رِيٍّ لِجانِحَةٍ ذَابَتْ عَلَيكَ صَدىً يَا وَادِيَ العَسَلِ

وَمَا دَعَاهَا إِلَى وَادٍ سِوَاكَ ظَمًا أَلَا تَبَيَّنُ فِيهَا فَتْرَةَ الكَسَلِ

ويبدو أنّ له– في هذا الوادي– ذكريات عزيزة على نفسه، يحنّ إليها كثيرًا، فشوقه إليه لا يعادله شوق لسواه.

ويُصوّر ما كان يُكابده من شوق وحنين، وهو في غربته، وما كان يعتلج في نفسه من ألم وحزن وأسى، وهو بعيد عن وطنه وأصحابه، فيرسل مع صاحبين له– حقيقة أم تخيّلًا– رسالة مفعمة بالشّوق والحنين، ويخصّ بالذّكر جسر معان الأثير إلى نفسه، يقول من[الكامل]: [2]

يَا صَاحِبيَّ عَلَى النَوَى وَلَأَنتُمَا أَخَوَا هَوَايَ وَحَبَّذَا الأَخَوَانِ

خُوْضَا إِلَى الوَطَنِ البَعِيدِ جَوانحي إِنَّ القُلُوبَ مَوَاطِنُ الأَوْطَانِ

وَلَبِثْتُمَا عِنْدِيْ طَلِيقَيْ غُرْبَةٍ وَلَفَظْتُمَا عُلَقَ المَشُوقِ العَانِي

أَمُوَدِّعَينِ وَلَمْ أُحَمِّلْ قُبْلَةً نَعلَيكُمَا تُهدى لِجِسْرِ مَعَانِ

ويتبدّى– من خلال ما تقدّم– أنّ الشّاعر عانى ما عاناه من ألم الوحشة والغربة، فتفجّرت عاطفة الشّوق والحنين في شعره، بثّ فيها أشواقه الحارّة إلى مسقط رأسه.

(١) الرّصافيّ البلنسيّ، ديوانه،(ص١١٩).

(٢) الرّصافيّ البلنسيّ، ديوانه،(ص١٣١– ١٣٢).

المبحث الثّاني: الخصائص الفنّيّة لشعر الشّوق والحنين في شعر الرُّصافيّ البلنسيّ

مَن يتأمّل النّصوس الشِّعريّة السّابقة يجد أنّها تمتاز بمميّزات فنّيّة عديدة، ولعلّ من أهمّها ما يلي:

أ- التّصوير الفنّيّ:

يُعدّ التّصوير الفنّيّ من أبرز جوانب الخطاب اللّغويّ الإبداعيّ، ومن خلاله يمكن استنطاق المعاني والأفكار الكامنة فيه، والكشف عن تجربة المبدع الشِّعريّة والشّعوريّة، وتبيان موقفه من الكون والحياة والإنسان، والصّورة الفنّيّة بصفتها تشكيل لغويّ حامل للتّجربة العاطفيّة، ومجالًا رحبًا للخلْق والإبداع، فقد لاقت اهتمامًا لافتًا للانتباه من قبل البلاغيّين والنّقّاد العرب القدامى والمحدثين على حدّ سواء. فهي: "رسم قوامه الكلمات...، المشحونة بالإحساس والعاطفة."[1] و" تركيبة وجدانيّة، تنتمي في جواهرها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع."[2] وتتّخذ من: "الألفاظ والعبارات، بعد أن ينظمها الشّاعر في سياق بيانيّ خاصّ؛ ليعبّر عن جانب من جوانب التّجربة الشّعريّة الكامنة في القصيدة، مستخدمًا طاقات اللّغة وإمكاناتها في: الدّلالة، والتّركيب، والإيقاع، والحقيقة، والمجاز، والتّرادف، والتّضادّ، والمقابلة، والتّجانس، وغيره من وسائل التّعبير الفنيّ."[3]

وقد اتّكأ الرُّصافيّ البلنسيّ على الصّور الفنّيّة؛ للتّعبير عن مشاعره وعواطفه تجاه الرُّصافة؛ مسقط رأسه بخاصّة، وبلنسية بعامّة من جهة، وتشوّقه وحنينه إلى أهله وخلّانه فيهما من جهة أخرى.

ومن ذلك قوله:

كَأَنَّ عَرُوسًا أَبْدَعَ اللَهُ حُسْنَهَا فَصَيَّرَ مِنْ شَرْخ الشَبَاب لَهَا عُمْرَا

فقد شبّه الشّاعر مدينة بلنسية- الواردة في بيت سابق- بالعروس بجامع الحسن والبهاء، والتّشبيه مرسل مجمل؛ ذكرت الأداة ولم يذكر وجه الشّبه، والصّورة التّشبيهيّة مفعمة بالحياة والحيويّة والجمال، ومنتزعة من البيئة الاجتماعيّة المحيطة به.

وقوله:

نَبَاتٌ كَأَنَّ الخَدَّ يَحْمِلُ نَوْرَهُ تَخَالُ لُجَيْنًا فِي أَعَالِيهِ أَوْ تِبْرَا

(١) لويس، سيسل دي، الصّورة الشّعريّة،(ص٢٢-٢٣).

(٢) إسماعيل، عزّ الدّين، الشّعر العربيّ المعاصر، ص١٢٧ .

(٣) القطّ، عبد القادر، الاتّجاه الوجدانيّ، ص٤٢٥.

وَمَـــاءٌ كَتَرْصِـــيع المَجَـــرَّة جَلَّلَـــتْ نوَاحِيَـــهُ الأَزْهَـــارُ فَاشْـــتَبَكَتْ زُهْـــرَا

أَنِيْـــقٌ كَرَيْعَـــان الحَيَـــاة الَّتِـــي خَلَـــتْ طَلِيْـــقٌ كَرَيَّـــان الـــشَبَاب الَّـــذي مَـــرَّا

ثمّة تشبيهات متلاحقة ومكثّفة، فقد شبّه نبات مدينة بلنسية بالخدّ المنـــوّر البهـــيّ، والنّور الّذي يحمله هذا النّبات، الّذي بعضه أبيض بالفضّة، والّذي بعضه الآخـــر أصـــفر بالتّبر، بجامع الحسن والجمال والبهاء، كما شبّه الماء الّذي يتخلّل هذه النّباتات، فيرويهـــا، ويبعث الحياة فيها بالمجرّة المرصّعة بالنّجوم، فازدادت نورًا وإشراقًا، وكذا هذه النّباتـــات الّتي شبّهها أيضًا بريعان الحياة، وريّان الشّباب حسنًا وجمالًا، والتّشبيه في كـــلٍّ مرســـل مجمل، مفعم بالحياة والحركة والنّشاط، ومستمدّ من البيئة المحيطة بالـــشّاعر، ويـــوحي بتعلّقه الشّديد بوطنه، وحبّه الكبير له.

ويقول كذلك:

بِجِـــسْرِ مَعَـــان وَالرَصَـــافَةِ إِنَّـــهُ عَلَى القَطْرِ أَنْ يَسْقِي الرَصَافَةَ وَالجِـسْرَا

فقد استعار السّقيا للرُّصافة والجسر، وهي– في الأصل للكائن الحيّ– وذلك علـــى سبيل الاستعارة المكنيّة الّتي حُذف منها المشبّه به، وأنسنة هذين المكانين– مثلًـــا– فيـــه دلالة على تعلّق الشّاعر بهذين المكانين، وحبه الشّديد لهما؛ لأنّ فيهمـــا ذكريـــات أثيـــرة لديه.

ويقول أيضًا:

مَحَـــلٌّ أَغَـــرُّ العَهْـــدِ لَـــمْ نُبْـــدِ ذِكْـــرَهُ عَلَـــى كَبِـــدٍ إِلَّـــا امْتَـــرَى أَدْمُعًـــا حُمْـــرَا

المَرْي– في الأصل– للنّاقة أو السّحابة، يُقال: امترى النّاقة: حلبها، ومرت الـــرّيح السّحاب: أنزلت منه المطر. وقد استعاره للكبد، ولكنّه دمع حارّ محرق، وليس مطـــرًا أو حليبًا؛ وذلك على سبيل الاستعارة المكنيّة الّتي يُستشفّ منها شوق الشّاعر وحنينه لمسقط رأسه، ومعاهد صباه؛ ذلك المحلّ الأغر الّذي لم يُفارق قلبه وذهنه معًا.

ويقول في بحيرة بلنسية الّتي تزيد في ضياء بلنسية ضحوة الشّمس عليها:

تُؤَبَّـــدُ فِيهَـــا شَعَـــشَعَانِيَّةُ الـــضُّحَى إِذَا ضَاحَكَ الـــشَمسُ البُحَيـــرَةَ وَالنَهْـــرَا

فقد أنسن الشّمس، والبحيرة، فجعل كلًا منهما إنسانًا يضاحك الآخر، ويتبـــسّم فـــي وجهه، فاستعار فعل الضّحك لمن ليس له، وفي ذلك دلالة على أهميّة هذه البحيرة الّتـــي تزيد في ضياء بلنسية ونورها من جهة، وحنينه لها؛ لما فيها من ذكريات عزيـــزة علـــى قلبه من جهة أخرى.

ومن الاستعارات التّشخصيّة، قوله في رُصافة بلنسية:

ولَـــا كَالرُّصَـــافَة مـــنْ مَنْـــزل سَـــقَتْهُ الـــسَحائبُ صَـــوْبَ الـــوَلي

فجعلها إنسانًا بحاجة إلى الماء؛ لضرورة البقاء على الحياة، فالرُّصافة كأيّ مكان، بأمسّ الحاجة إلى الماء، شأنها شأن الكائن الحيّ؛ لتبقى غنيّة بأهلها، فلا يظعنون عنهـا. وممّا لاشكّ فيه أن هذه الاستعارات تعكس تعلّق الشّاعر بالمكـان، وحبّـه الـشّديد لـه، فالذّكرى والتّذكر يبعثان على الشّوق والحنين.

ب- التّناصّ:

يستهدف التّناصّ – كمصطلح نقديّ – النّصّ، وعلاقتـه بالنّـصوص الأخـرى؛ الغائبة أو المستترة. فالنّصّ- على حدّ قول جوليا كرستيفا (Julia Kristeva)-:" لوحـة فسيفسائيّة من الاقتباسات، وكلّ نصّ هو تشرّب، وتحويل لنصوص أخرى."[1] وهـذا لا يعني – بالضّرورة – أن يفقد النّصّ الحاضر شيفرته الخاصّة به الّتـي تمنحـه فرادتـه وتميزه، وعلى أيّ حال ف"إنّ القصيدة نصّ يرتبط بنصوص أخرى، ويتطلّـب مـشاركة فعّالة من قارئ ماهر قادر على تأويله."[2]

ومن يتأمّل نصوص الرُّصافيّ البلنسيّ السّابقة الذّكر، يجـد أنّـه قـد أفـاد مـن النّصوص الغائبة، واستثمرها في تخصيب نصوصه الحاضرة من جهـة، وإيقـاظ فكـر المتلقي وشحذ ذاكرته لعملية التلقي من جهة أخرى.

ومن ذلك قوله:

تُؤَبَّـــدُ فِيهَـــا شَعَـــشَعَانِيَّةُ الـــضُّحَى إِذَا ضَـــاحَكَ الـــشَمسُ البُحَيـــرَةَ وَالنَهْـــرَا

والحديث- هنا- عن البركة المعروفة- آنذاك- في بلنسية الّتي كانت تزيـد فـي ضياء بلنسية في ضحوة الشّمس عليها. ويبدو أنّه أفاد من قول البحتريّ(ت٢٨٤ ه) فـي وصف بركة المتوكّل(ت٢٤٧ ه)؛ إذ يقول من[البسيط]:[3]

فرَونَـــقُ الـــشَّمس أحْيَانـــاً يُـــضَاحكُهَا وَرَيِّـــقُ الغَيـــث أحْيَانـــاً يُبَاكيهَـــا

فقد تلاقى النّصّ الحاضر مع النّصّ الغائب في تصوير أشـعّة الـشّمس، وهـي تداعب سطح ماء البركة، فتزيدها إشرقًا، ومن ثمّ يبدو ما حولها أشدّ وضوحًا.

(١) الغذامي، عبد الله محمد، الخطيئة والتكفير، (ص٣٢٩).
(٢) شولز، روبرت، السّيمياء والتّأويل، (ص٧٧).
(٣) البحتريّ، ديوانه، ص (٢٤١٩).

ويشير بخفية في قوله:

أَكُلُّ مكَـــان كَـــانَ فـــي الأَرْضِ مَـــسْقَطًا لرَأْسِ الفَتَى يَهْوَاهُ مَـــا عَـــاشَ مُـــضْطَرًّا

إلى قول أبي تمام السابق:(١)

كَمْ مَنْـــزِل فـــي الأَرْضِ يَأْلفُـــهُ الفَتَـــى وَحَنِيْنُـــــه أَبَـــداً لـــــأوّلِ مَنْـــــزِلِ

ووجه التّلاقي بين اللّاحق والسّابق الحنين إلى مسقط الرأس؛ اضطرارًا وضرورة، دون الحاجة إلى مقدّمات وإقناع.

وتراه يتناصّ في قوله:

طَويـــلُ نجـــاد الـــسَيف لانَ كَأَنَّمَـــا تَخَطّـــى بـــه فـــي البَـــرد خَطِّيَّـــةً سَـــمْرَا

مع قول الخنساء، تُماضر بنت عمرو (ت٢٤ه) من[المتقارب] (٢):

رَفِيـــعُ العِمـــادِ طَويـــلُ النِّجَـــا دِ سَـــــادَ عَـــــشِيْرَتَهُ أَمْـــــرَدَا

وقد استعار منها الكناية الدّالّة على الشّجاعة؛ اللّازمة عن طول حمائل أو نجاد السّيف؛ وذلك في وصف فتًى من أصحابه.

وتعالق أيضًا مع القرآن الكريم، وذلك في مثل قوله:

بِلَادِي الَّتِـــي رِيْـــشَتْ قُوَيْـــدِيمَتَي بِهَـــا فُرَيخًـــا وَآوَتْنِـــي قَرَارَتُهَـــا وكْـــرَا

فقد أشار بطريقة غير مباشرة إلى قوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَا ابْـنَ مَـرْيَمَ وَأُمَّـهُ آيَـةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[المؤمنون:٥٠] وذلك للدّلالة على ما كان ينعم به من نعيم في وطنه؛ حيث نشأ وترعرع هناك آمنًا مظمئنًا، لا يكدّر صفوه مكدّر؛ حتّى أكرهته الظّروف على مغادرة وكره.

وتراه يستدعي قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾[المُلك:٥] وذلك في قوله:

تَـــرَاجَمُ أَنْفَـــاسُ الرّيـــاحِ بزَهْرِهَـــا رُجُومًـــا فَـــلا شَـــيْطانَ يَقرَبُهَـــا ذُعْـــرَا

حيث أفاد من قوله تعالى السّابق في تصوير تمايل الأزهار تحت وقع الرّياح برجوم الشّهب الّتي تُقذف بها الشّياطين، فلا تستطيع الاقتراب من السّماء؛ لاسترق السّمع من الملأ الأعلى.

(١) أبو تمّام ، ديوانه (٤/ ٢٥٣).

(٢) الخنساء، ديوانها، (ص ١٤٣).

ج- التّكرار:

التّكرار ظاهرة أسلوبيّة مهمّة تنهض بديمومة النّصّ، وتماسك أجزائه، وترابطه المعنويّ والنّفسيّ، إنْ أحسن الشّاعر استخدامه، وتوظيفه بطريقة دقيقة. فالتّكرار بنية عميقة تحكم المعنى، وتكشف عمّا يختبئ وراء البنية السّطحيّة للكلام. وينضوي تحته تداعيات شعوريّة مختلفة. وهو: " أن يكرّر المتكلّم اللّفظة الواحدة؛ لتأكيد الوصف، أو المدح، أو الذّم، أو التّهويل، أو الوعيد." [(١)]، فالمتكلّم "إنّما يكرّر ما يثير اهتماماً عنده، وهو يحبّ في الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه، أو من هم في حكم المخاطَبين، ممّن يصل إليهم القول على بعد الزّمان والدّيار."[(٢)]؛ حيث يكثّف، ويكشف عن المشاعر، والأحاسيس المخبوءة في أعماق الذّات المبدعة.

وأكثر الأساليب تكرارًا- ولاسيّما في رائيّته- أسلوب الاستفهام، وأسلوب النّداء. يقول:

خَلِيْلَيَّ مَا لِلبِيْدِ قَدْ عَبَقَتْ نَشْرً وَمَا لِرُؤوس الرِكْب قَدْ رُنِّحَتْ سُكْرَا؟

هَل المِسْكُ مَفْتُوقًا بِمَدْرَجَةِ الصَبَا أَم القَوْمُ أَجْرَوا مِنْ بَلَنْسِيَة ذِكْرَا؟

فتتابع الأسئلة في البيتين: الأوّل والثّاني لصاحبيه المرافقين له في رحلته المتخيّلة، يكشف عمّا يُعانيه الشّاعر من لوعة وحرقة من جهة، كما يكشف عن جمال تلك المدينة ذات الموقع المتميّز؛ ذلك الموقع الّذي أعطاها الجمال السّاحر، لما فيها من أنهار ورياض وأطيار... من جهة أخرى[(٣)]. ثمّ يعود إلى بنية الاستفهام مرّة أخرى؛ ليؤكّد من خلالها أنّ الإنسان يهوى مسقط رأسه، ومعهد صباه جبلّة، ودون حاجة إلى إقناع. يقول:

أَكُلُّ مَكَانَ كَانَ فِي الأَرْض مَسْقَطًا لِرَأْس الفَتَى يَهْوَاهُ مَا عَاشَ مُضْطَرًا

وكذلك الحال في قوله:

وَقَالُوا هَلِ الفِردَوْسُ مَا قَدْ عَلِمْتُهُ فَقُلْتُ وَمَا الفِردَوْسُ فِي الجَنَّةِ الأُخْرَى؟

هَلِ السَعْدُ إِلّا حَيثُ خُطَّ صَعِيدُهُ فَمَا بَلَّ فِي شَفْرَيْ ضَرِيح لَهُ شَفْرَا؟

فبنية الاستفهام- المتكرّرة- تؤكّد حنينه وشوقه الدّائم إلى بلده، ومنزلته العظيمة في نفسه وفؤاده معًا. وأمّا الاستفهام في قوله:

---

(١) ابن أبي الإصبع المصريّ، تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر(ج٢/ ٣٧٥).

(٢) عليّ السيّد، عزّ الدّين، التّكرير بين التّأثير والمثير، (ص٣٦).

(٣) ينظر: بركات، عمري رزق، الوصف بين الرّصافيّ البلنسيّ والسّريّ الرّفّاء، (ص٤٧٥، ٤٧٦).

أَكَارمُ عَــاثَ الــدَهْرُ مَــا شَــاءَ فِــيهمُ فَبــادَتْ لَيــاليهم فَهَــل اشْــتَكَى الــدَهرا

فيكشف عن حزن الشّاعر؛ جرّاء فَقْده أهله وخلّانه، فقد عاث فيه الدّهر، وفــرّقتهم أيدي المنون.

وتراه يكرّر أسلوب النّداء غير مرّة، لغايات فنّيّة جماليّة ومعنويّة، ولاســيّما تلــك القوالب اللّفظيّة، أو ما يسمّى ب"الكليشهات"، وهي: "تراكيب لغويّة عرفيّة، تجري علــى ألسنة أبناء اللّغة؛ للتّعبير عن فكرة أو معنى ما، دون تغيير جــوهريّ فــي عناصــرها وأبنيتها اللّغويّة. فهي، لذلك، أشبه بما تعرفه كلّ لغة عادة من كليــشهات ثابتــة، يحــافظ على مفرداتها وتركيبها النّحويّ، وتنتقل من متكلّم إلى آخر انتقالًا آليًّا محــضًا."[1] ومــن ذلك قوله:

خَلِيْلَــيَّ مَــا للبيْــد قَــدْ عَبَقَــتْ نَــشرَ وَمَا لرُؤوس الركْب قَــدْ رُنِّحَــتْ سُــكْرَا

خَلِيْلَــيَّ عُوْجَــا بِــي عَلَيْهَــا فَإِنَّه حَدِيْثٌ كَبَرْدِ المَاءِ فِي الكَبِــدِ الحَــرّى

خَلِيلَــيَّ إِنْ أَصــدُرْ إِلَيْهَــا فَإِنَّهَــا هِيَ الوَطَنُ المَحْبُــوبُ أَوْكَلتُــهُ الــصَدْرَا

فأسلوب النّداء في قوله:" خَلِيْلَيَّ" المكرّر ثلاث مرّات، تداوله الشّعراء منذ العصر الجاهليّ إلى يومنا هذا؛ لما له من خصوصيّة نفسيّة واجتماعيّة، ولما يحمله أيــضًا مــن سمات عاطفيّة، ومن ثمّ يتحول معه الخطاب من وظيفته الإخباريّة إلى الوظيفة التّأثيريّــة والجماليّة.

(١) العبد، محمد: إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، (ص١٠٢).

الخاتمة:

لقد خلصت هذه الدّراسة إلى مجموعة من النّتائج، من أبرزها ما يلي:

- يُعدّ موضوع الشّوق الحنين إلى الدّيار، والأهل والأحبة قديمًا قِدم الشِّعر العربيّ، منذ ابن حذامٍ، وامرئ القيس، وانتهاء بالشِّعر العربيّ المعاصر، وقد تجسّد في هذا الغرض الشِّعريّ عاطفة اللّوعة والألم، والأسى والحزن، والمكابدة والمعاناة، وصدق المشاعر، المفعمة بالحب والحنين والشّوق، والبعد عن الزّيف والتّزلّف والتّملّق. وهو تجربة إنسانيّة عامّة لكلّ من عانى ألم البعد عن الوطن، والنّأي عن الدّيار، فتعلّق الإنسان بالمكان ضرورة، وفطرة، لاتحتاج إلى دليل وإقناع.
- لقد ترك لنا الشّعراء الكثير من الشِّعر– منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا– الّذي يهيّج الوجدان، ويثير الدّمع، ويبعث الجوى الدّفين، والحرقة الّتي تنبئ عنها الدّموع، ويفضح مكنوناتها البكاء، ويبلغ هذا الأمر أقسى وأقصى غايته، عندما ينأى الإنسان عن وطنه، ويبتعد عن ذويه. ويتجلّى هذا الانفجار العاطفيّ، والانفعال الحادّ، والحنين الجارف في لغة عفويّة تتداعى فيها الألفاظ والمعاني، وتنثال الذّكريات إلى معاهد الصِّبا، ومسقط الرّأس بكلّ صدق وأريحيّة.
- لقد عانى الرُّصافيّ البلنسيّ تجربة البعد عن وطنه وخلّانه؛ حيث ترك مسقط رأسه وأصدقاءه، وشطّت به الدّار، فخرج من وطنه صغيرًا، سواء أكان ذلك نتيجة اضطراب الأحوال السّياسيّة في بلنسيّة، أم سعيًا وراء طلب الرّزرق في مدينة مالقة الّتي كان فيها سوق كبير للرّفّائيّين، يستطيع والده العمل في هذا السّوق؛ ليحصل على الرّزق، وسبل العيش والحياة. وظلّ الرُّصافيّ البلنسيّ يذكر معاهد طفولته؛ كالرُّصافة، وجسر معان، والبحيرة، والنّهر، والمناظر الطّبيعيّة المتنوّعة، فلا غرو، إذن، أن تنفجر كوامن الإبداع والشِّعريّة على لسانه، فخلّد تجاربه الشِّعريّة والشّعوريّة، شِعرًا يفيض حيويّة وعمقًا، وشوقًا وحنينًا إلى وطنه، وكان هذا الشِّعر السّبب في إشادة الأدباء القدامى والمحدثين– على حدّ سواء– بشِعره.
- كشفت الدّراسة عن عن بعض الخصائص الفنّيّة الّتي توافرت في شِعر الشّوق الحنين إلى الرّصافة وبلنسية في شِعر الرُّصافي البلنسيّ، ولعلّ من أبرزها: الصّور الشِّعريّة الّتي اتّكأت– في الغالب– على الوسائل البلاغيّة التّقليديّة من تشبيه واستعارة، فكان للاستعارة التّشخيصيّة النّصيب الأوفر؛ لأنّها الأكثر قدرة على التّعبير عن مشاعره وعواطفه، وكأنّها إنسان يسعى ويتحرّك. وكذلك التّكرار الّذي انضوى تحته التّداعيات الشّعوريّة، يحدوها الحنين والشّوق الصّادق، ومن ثمّ

استطاع أن يثير عواطف المتلقّي، فيشاركه هذه المشاعر الصّادقة، وهي- بـــالطّبع- عواطف قارّة في نفس الإنسان السّوي؛ لأن حنين النّاس إلى أوطانهم، فطرة فطرهم الله تعالى عليها، لا تحتاج إلى مبرّرات وإقناع. وكذلك التّناصّ الّذي كان تقنية فاعلة في دعم وجهة نظره، وتقوية أفكاره ومعانيه، فأضحت أشدّ تأثيرًا، وأكثـــر تخـــصيبًا للنّصوص الحاضرة.

المصادر والمراجع:

- إبداع الدّلالة في الشِّعر الجاهليّ، مدخل أسلوبيّ، محمد العبد، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.
- الاتّجاه الوجدانيّ في الشِّعر العربيّ المعاصر، عبد القادر القط، مكتبة الشّباب، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.
- تحرير التّحبير في صناعة الشِّعر والنّثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصريّ، أبو محمّد عبد العظيم بن عبد الواحد(ت٦٥٨ه)، تحقيق: محمّد حفني شرف، لجنة إحياء التّراث الإسلامي، القاهرة،(د.ط)،(د.ت).
- التّكرير بين المثير والتّأثير ، عزّ الدّين عليّ السّيّد، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦م.
- التّكملة لكتاب الصّلة، ابن الأبّار، محمّد بن عبد الله (٦٨٥ه)، تحقيق: عبد السّلام الهرّاس، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٥م.
- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية – قراءة نقدية لنموذج معاصر – عبد الله الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٨م،
- ديوان ابن الرّومي، عليّ بن العبّاس(ت٢٨٣ه)، تحقيق: حسين نصّار، دار الوثائق القوميّة(مركز تحقيق التّراث)، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣م.
- ديوان أبي تمام، حبيب بن أوس الطّائيّ(ت٢٣١ه)، تحقيق: محمّد عبده عزّام، دار المعارف، القاهرة، ط٣،(د.ت).
- ديوان البحتريّ، أبو عبادة الوليد بن عبيد(ت٢٨٤ه)، كامل حسن الصّيرفيّ، دار المعارف، القاهرة، ط٣،(د.ت).
- ديوان الخنساء، تُماضر بنت عمرو(ت٢٤ه)، تحقيق: أنور سويلم، دار عمّار للنّشر، عمّان، ط١، ١٩٨٨م،
- ديوان الرّصافيّ البلنسيّ، أبو عبد الله محمّد بن غالب(ت٥٧٢ه)، جمع وتقديم: إحسان عبّاس، دار الشّروق، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.
- ديوان امرئ القيس، امرؤ القيس بن جُحْر بن الحارث، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤،(د.ت).
- رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت٢٥٥ه)، تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م.

- السّيمياء والتّأويل ، روبرتشولز، ترجمة: سعيد الغانمي المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م .
- شرح ديوان الحماسة، أحمد بن محمّد المرزوقيّ(ت٤٢١ه)، نشره: أحمد أمين، عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنّيّة والمعنويّة، إسماعيل عزّ الدّين، دار الفكر العربيّ، بيروت، ط٣،(د.ت).
- صحيح ابن حبّان(المسند الصّحيح)، محمّد بن حبّان بن أحمد التّميميّ(٣٥٤ه)، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، دار المعاف، القاهرة،(د.ط)،(د.ت).
- الصورة الشعرية ، سيسل دي لويس، ترجمة: أحمد نصيف وآخرين، مراجعة: عناد غزوان، دار الرّشيد، بغداد، ط١، ١٩٨٢م.
- الغربة والحنين في الشِّعر الأندلسيّ، فاطمة طحطح، مطبعة النّجاح الجديدة، الرّباط، ط١، ١٩٩٣م.
- لسان العرب ، ابن منظور، محمّد بن مكرّم(ت٧١١ه)، تحقيق: عبد الله عليّ الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة،(د.ط)،(د.ت).
- المعجم الأدبيّ، جبّور عبد النّور، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
- المعجم الفلسفيّ، جميل صليبا، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- المعجم المفصّل في الأدب، محمّد التّونجيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.
- معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس(ت٣٩٥ه)، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر العربيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٧٩م.
- المُغرب في حُلى المَغرب ، ابن سعيد المغربيّ، عليّ بن موسى(ت٦٨٥ه)، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٤،(د.ت).
- الوصف بين الرّصافيّ البلنسيّ والسّريّ الرّفّاء(دراسة مقارنة)، رزق بركات عمري، مجلّة الدّراسات التّربويّة والإنسانيّة، جامعة دمنهور، دمنهور، ٢٠١٣م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، ابن خلّكان، أحمد بن محمّد(ت٦٨١ه)، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.